الشرق الأوسط
ASHARQ AL-AWSAT
جريدة العرب الدولية

رابط المصدر: https://aawsat.com/node/3701781

ميرال الطحاوي: الكتابة لديّ تبدأ بهاجس خافت وأسئلة وجودية مؤرّقة

الروائية المصرية تشتبك مع عالم المهاجرين في روايتها الجديدة «أيام الشمس المشرقة»

الثلاثاء - 15 ذو القعدة 1443 هـ - 14 يونيو 2022 مـ رقم العدد [15904]

ميرال الطحاوي

القاهرة: منى أبو النصر

منذ روايتها الأولى «الخباء»، لفتت ميرال الطحاوي الأنظار لخصوصية عالمها الروائي. وفي روايتها الجديدة «أيام الشمس المشرقة»، الصادرة حديثا عن دار العين بالقاهرة، تشتبك الكاتبة مع عالم المهاجرين عبر حكايات أبطالها الهاربين من أوطانهم وراء جنة موعودة. ويتماس هذا العالم مع تجربة الكاتبة الذاتية التي خاضتها بعد هجرتها إلى الولايات المتحدة حيث تعمل أستاذا للأدب العربي بجامعة أريزونا الأميركية. حصلت الطحاوي على جائزة الدولة التشجيعية في مصر عام 2002، وحازت روايتها «بروكلين هايتس» على جائزة «نجيب محفوظ» الأدبية من الجامعة الأميركية بالقاهرة... هنا حوار معها حول روايتها الجديدة وتجربتها الروائية عموماً:

● في تصدير روايتك الجديدة إحالة لشمس الدين التبريزي ورهافة تصوراته عن السفر والرحلة، لكن سرعان ما تحيل الرواية لمكان كابوسي لا مكان فيه للأحلام كما يبدو. كيف رأيت توظيف تلك المفارقة؟

- تبدأ عملية كتابة الرواية دائما في تجربتي بهاجس خافت، بأسئلة وجودية لا أعرف كيف أجد جوابها، بمشاعر مختلطة أود التعبير عنها، مشاعر تختار شكلها القصصي وتصنع أبطالها الذين يتشكلون من ذاكرتي استجابة لهذا الهاجس، بالتأكيد كانت فكرة الرحلة بكل دلالاتها الروحية ذات الجذر الصوفي حاضرة أثناء كتابة الرواية. بالطبع كان الموروث الصوفي جزءا من محاولات الفهم، وكانت التصورات الصوفية للحياة بوصفها رحلة روحية وأننا نعاني بشكل ما هذا الحنين للعود الأبدي. جمعت الكثير من الشذرات الصوفية التي تتحدث عن الطريق والوصول وحتمية الارتحال، خاصةً في مأثورات التبريزي وجلال الدين الرومي، لكن رافق ذلك أيضاً الكثير من الأسئلة الوجودية في مسيرتي ككاتبة ومهاجرة وإنسانة. كانت تلك الأسئلة تطرح نفسها أيضاً، لا أعرف متى بدأت أنتبه بشكل عفوي لتلك الأغاني التي تتحدث عن الغربة، ولا لماذا كانت تطربني وكنت قد صدقت أنني خلعت كل تصوراتي الرومانتيكية وراء ظهري وتحولت لسيدة أميركية عملية وحازمة وسعيدة بما استطعت تحقيقه. لكن في الحقيقة، «الغربة كربة» كما يقولون بالعامية. الغربة ليست تجربة سعيدة علي الإطلاق لكنها تجربة مفيدة ومؤثرة. في «الشمس المشرقة» كان هناك الكثير من البحث المعرفي لمفهوم الشتات، ومحاولة لفهم علاقة المنفي بالوطن الذي خرج منه طوعا أو قسرا، في وقت من الأوقات كانت أغنية قديمة لفيروز ترافقني بشكل دائم تقول (... يا ريت ما كان فيها مراكب، يا ريت ما كان فيها سفر)، لا أعرف كيف وجدت تلك الأغنية صداها في روحي أو صارت ترافقني طوال مراحل الكتابة.

● تبدو أسئلة الهجرة، والشرق والغرب، موصولة ومؤرقة في مشروعك، منذ «بروكلين هايتس» وحتى «أيام الشمس المشرقة» كيف تتأملين التقاطع والتوازي بين هذين العملين الروائيين؟

- هناك مقولة شائعة عادة ما يتم اجترارها بين الغرباء مفادها أن قلبك لا يرحل معك «إنه مغناطيس سيظل يجذبك دائما إلى الوراء»، هذا ما يجمع التجربتين، كلتاهما تعبير عن الشتات وقسوته، تعبير عن مشاعر الفقد والهجر والإحباط في كلا العالمين، صراع مع ذلك الماضي الذي نحمله في حقائبنا، الفرق بين التجربتين هو تراكم الخبرات أو التجارب في ذلك المنفى الاختياري، خبرة الوعي بالذات، خبرة الأمومة وضياع الأبناء، خبرة الاقتلاع من الثقافة الأم، والتمزق بين اللغة والهويات المتعددة، لقد كتبت «بروكلين هايتس» مبكرا وأتذكر أن الصديقة الغالية ظبية خميس قالت لي «بعد فترة كافية من الوقت ستكتبين عن أميركا بشكل مختلف» وقد كان.

في «بروكلين هايتس» كانت محاولة لاكتشاف الذات، والنظر من بعيد للماضي ومحاولة للتشافي منه، لكن «الشمس المشرقة» لا ترتكز على الأبطال بل يصبح المكان هو المحرك الأول للحدث، عالم «الشمس المشرقة» هو البطل إن شئت، بعبارة أخرى في روايتي الجديدة محاولة أكثر نضجا للتعبير عن أوهام الخلاص والتحقق والتحرر والوصول للجنة الأبدية في مخيلة المهاجر عن الوطن البديل، ثم كيف يتحول هذا الحلم بالتدريج إلى خدعة.

● ينفتح عالم الرواية على بؤس عاملات النظافة، وعالم مقابر الأقليات والصراعات داخل أروقة الجامعات. الأبطال هنا على تعددهم عابرون ومهمشون. حدثينا عن خريطتك في رسم ملامح سكان «الشمس المشرقة».

- الرواية عن الشتات، عن عالم المهمشين في المنفى، من الطبيعي أن تكون شخصياتها من المهاجرين الفقراء والذين يخوضون الكثير من المغامرات في محاولة للنجاة، عن الذين يتسللون لتلك البلاد المشتهاة عادة بطرق غير شرعية ويعيشون في جيتوهات أو بلدات حدودية جبلية أو ساحلية، مثل تلك البلدة التي أكتب عنها، أوما أطلقت عليه مجازا بلاد «الشمس المشرقة»، أو غيرها من مدن النزوح، حيث تتحول الحياة اليومية في هذا المنفى الاختياري إلى محاولة متعسرة للنجاة من أشباح الماضي ثم الهرب من الواقع القاسي، البطولة في النص ليست للشخصيات التي أقدمها، السرد يتمحور حول هذا العالم وكيف يخلق عزلته ويعيش كهامش على أطراف المنتجعات الباذخة.

ويمكننا النظر لفكرة الهامش بشكل مزدوج، لا تخص فقط فئة أو طبقة معينة، وهم الطبقة الدنيا من العمالة الأجنبية، فالاغتراب والمنفى ومغادرة الوطن بشكل عام يعني للكاتب بشكل خاص شكلا من أشكال «الإقامة في الهامش» بتعبير إدوارد سعيد؛ الإقامة في الهامش الثقافي والاجتماعي لكلا العالمين، فهو مغيب وغائب في أرض المحضن، ومهمش بحكم لونه وعرقه ولغته وثقافته في الوطن الاختياري الجديد، وبالتالي يعيش هجرة مستمرة لا يمكن التآلف معها، ومن ثم هي غربة تولد الحنين الدائم إلى ماضٍ وأرض وثقافة ولغة وعالم لم يعد موجودا، لذلك فإن جوهر تلك التجربة هو البؤس، والحزن الذي لا يمكن التغلب عليه، يتساوى في ذلك كل المهاجرين الذين يتم التعامل معهم باعتبارهم هامشا طوال الوقت.

● عنونت الأماكن بأسماء لها وقع مجازي «الشمس المشرقة»، «الجنة الأبدية»، «سنام الجمل». هل اعتمدت تكنيك التبادل بين الواقع والمجاز في وصف معالم مجتمع المهاجرين بالولايات المتحدة؟

- تلك المفارقة لم أصنعها في تقديري إنما رصدتها بشكل كبير، في تلك البلدات الكثيرة التي عبرت بها في ولايات مختلفة، كلما كانت الحياة بائسة كانت البلدات ذات أسماء خلابة، مرتبطة بالجنة والتلال والوديان والطبيعة الخلابة، ربما كانت أميركا في وقت من الأوقات تلك الأرض البكر التي تقترح تلك العوالم الواعدة بالسعادة، ثم تحولت بالتدريج لآلية رأسمالية لتسويق الكمبوندات والمنتجعات وحتى التجمعات السكنية البائسة. فكرت في ترك الأسماء بطبيعتها الإنجليزية، مثل برداير فاليparadise valley، لكن خيار ترجمة أسماء الأماكن الأميركية بشكل تهكمي وكاريكاتيري، بدا سحريا، أو أنه بالأحرى أضفى على المكان في مخيلتي طابعا كرتونيا كاذبا يخلق مفارقة بين الواقع والمتصور، وهذا ما أردته بالضبط، حدث ذلك أيضاً في اختيار العنوان، لقد تحيرت كثيرا وبعض الأصدقاء اقترحوا «الشمس الحارقة» رأوا أن ذلك أقرب لواقع الرواية، ولكنني اخترت الاتكاء على المفارقة، كما أشرت، لأن بنية النص ذاته قائمة وخالقة لتلك الدلالة العميقة للمجاز اللغوي.

● في الرواية اعتناء كبير بالوصف، بداية من الوصف الجغرافي للأماكن مرورا بتغيرات المناخ والفوضى البيئية. هل هنا ثمة اقتراب رمزي من الحصار الذي يبتلع الأبطال داخل سجنه؟

- نعم هناك اهتمام كبير بخلق صورة أو تصور جغرافي للمكان، «الشمس المشرقة» البلدة التي كانت تؤوي عمال المناجم، ثم تحولت إلى مدينة للمهاجرين، ومحطة من محطات الهجرة غير الشرعية. جغرافيا الرواية مهمة لأن الأحداث والشخصيات والنص كله يقوم في بلدة حدودية صارت محطة لتهريب البشر، تقع في منخفض يحيط به الجبال الشاهقة بمنتجعاتها العالية، تلك الجغرافيا خلقت طبيعة تلك الأرض وشكلت العلاقة بين سكانها، فالمتجول بين الولايات الأميركية خاصةً الجنوبية شرقا وغربا، سيجد تلك الحالة الجغرافية متكررة على الحدود الممتدة مع الجنوب حيث تمثل بوابات النزوح ومحاولات الدخول اليومي للمهاجرين غير الشرعيين، والحقيقة أن الجغرافيا ليست سوى دلالة على ما هو أعمق من تلك التضاريس بتعبير جمال حمدان، الجغرافيا هي القدر الذي يصنع التاريخ ويحدد أحيانا المصير الإنساني، لذلك أعتقد أنها تشكل الكثير من الدلالات الرمزية في النص كالوضع الطبقي والمسافات التي تفصل المتن الديمغرافي عن الهامش المتنامي الذي يستوطنه المهاجرون.

● تظهر المرأة في الرواية بحضور أنثوي أكبر، قمت هنا بتوظيف اللغة في محاولة إبراز عنفوانها بصورة أكثر جرأة، فهل ترددت في استخدام العامية أحيانًا على لسان بعض البطلات؟

- في الحقيقة كانت شخصية «نعم الخباز» محرضة على اختياراتي في لغة الحوار، فالشخصيات خاصةً «نعم الخباز» خليط من البؤس والذكاء والانحطاط أحيانا، كما أن العالم كله عالم سيدات الرعاية المنزلية وأعمال النظافة اللاتي يأتين من جنسيات كثيرة، أفريقية، ولاتينية وآسيوية وشرق أوسطية أيضاً، تلك الطبقة إن شئت تسميتها طبقة خلقت بمرور الوقت لغتها الحادة المنفلتة والبذيئة في بعض الأحيان، وهي لغة هجينة من كل اللكنات ولكن يمكن فهمها، لغة تشبه طريقة تعاطي الشخصية مع الوجود، فيها الكثير من التحدي والعنف، لذلك فإن عامية «نعم الخباز» لم تزعجني ولم أخترها أيضاً ولم أقم بتهذيبها، بل هي التي فرضت شكلها، قمت بحذف بعض ألفاظ الشتائم وطرق الحوار في مراحل النشر، لكنني لم أمارس سطوتي ككاتبة على صوتها نعم أو صوت غيرها، في النهاية يجب أن يترك الكاتب للشخصيات التي خلقها صوتها الخاص، صوتها الذي يعبر عنها بعيدا عنه.

● شغفك بالشعر النسائي البدوي والأغاني الشعبية قادك لمشروع ممتد، ما أكثر ما يلهمك في ملامحه الشعرية والحكائية؟

- العلاقة بين الكتابة والجندر هو تخصصي كباحثة، وأيضاً يمثل جزءا كبيرا من اهتمامي ككاتبة، رسالتي للماجستير كانت عن التمرد والاغتراب في أعمال الكاتبة السورية غادة السمان، ودراستي للدكتوراه والتي عنوانها حول المقدس في رواية الصحراء العربية، كان للكاتبة السعودية رجاء عالم جزء كبير منها، والكتاب الذي أشتغل عليه الآن أيضاً عن كتابة المرأة. لقد بدأت رحلة جمع الشعر النسائي البدوي مبكرا جدا، ربما كانت هي مفتاح الكتابة أو المحرض على الكتابة. منذ سن مبكرة، كنت أتلصص على جلسات الجدات، وهن يمارسن طقسا ارتجاليا شعبيا للغناء الجماعي، يسمونه «ضرب العلم»، عندما بدأت كتابة روايتي الأولى «الخباء» كانت «غناوة العلم» محرضي على الكتابة، استخدمت شعر (الغناوة) كمفتتحات لفصول السرد، لم تكن تلك الأبيات مجرد مفتتح لفصول رواياتي، بل كانت أيضاً هي الوعاء الذي تشكلت عبره خصوصية رؤيتي للبوح الأنثوي التراثي الذي يعتمد على الاستعارة، والإيحاء دون إفصاح، استفدت كثيرا من الإمكانات التي عرفني عليها هذا الشكل الأدبي، وعبقرية هذا الفن الشفاهي في التعبير عن المشاعر الحميمة، وخلق عالم موازٍ، واستخدام الرمز، والتعبير الموارب هرباً من سطوة الرقيب الاجتماعي. كنت وما زلت أرى أن الترميز، والتجريد، والإغراق في إلغاز دلالي واسع الإحالة، هي آليات الإبداع وحيل التعبير الأنثوي للبوح.

أخبار ذات صلة

- Previous
- Next

اضغط هنا للطباعة.